دعابة الجاحظ

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

كان أبو عثمان الجاحظ لوقته شيخ الأدب ، وفخر العرب ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، إن تكلم حكى سحبان فى البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل[1] ، وكان إلى جانب هذا كله ظريفاً مرح النفس ، يحرص على النادرة ويحتفل بها ، ولو كان فيها ما ينال من شخصه ، ويمسه فى سمته . ولما كان الأدباء قد أكثروا القول عن الجاحظ فى أدبه وفنه ، وعلمه وتحقيقه واقتداره على الكلام والجدل ، فقد رأينا أن ننظر إليه فى دعابته ومرحه ؛ وإنها الناحية للباحث فيها مراد ومنزع ، وللقارىء منها متاع ولذة . ولعل من الخير قبل الأمعان فى البحث أن ندحض وهما يقوم فى رؤوس بعض الناس إذ نجدهم ينكرون ذلك على الجاحظ وأضراب الجاحظ ، لأن كرامة الأديب أو العالم فى رأيهم أكبر من أن تكون مصدر عبث ومجانة ، وأرفع من أن تبتذل فى الضحك والتنادر ، وقديماً قيل : ليس لمزاح مروءة ، ولا لمار خلة . ولقد رأيت ابن قتيبة لما أراد أن يثلم الجاحظ لم يدخل عليه إلا من هذه الجهة إذ قال : إنه كان يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث . وفات هؤلاء الناس أن الانسان حيوان ضاحك بالك بطبعه ، وأن الله قد خلق فيه الضحك قوة تعينه على استساغة هذه الحياة المريرة ، كما خلق فيه البكاء قوة تقف به موقف العظة والاعتبار . وقد روى فيما روى عن الحسن البصرى أنه قال : حادثوا هذه القلوب فأنها سريعة الذبول ، وارعوا هذه الأنفس فانها طلعة ، وإنكم إن لم ترعوها تنزع بكم إلى شرغاية !! ومما جاء فى التاريخ أن عبد الله بن طاهر جلس مجلسا أنصف فيه من وجوه القواد ، وأمراء الأجناد ، وضرب الأعناق ، وقطع الأيدى ، وردّ كبار المظالم ، ثم قام وقد دلكت الشمس ، فتلقاه الخدم ، فأخذ هذا سيفه ، وهذا قباءه ، وهذا إزاره ، فلما دخل دعا بنعل رقيقة فلبسها ثم رفع ثوبه على عاتقه وتوجه نحو البستان وهو يتغنى :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

قال عيسى بن يزيد : وكنت جريئا عليه ، فجذبت ثوبه من عاتقه وقلت له : أتقعد بالغداة قعود كسرى وقيصر ، ثم تعمل الساعة عمل علوية ومخارق ؟ ! فردّ ثوبه على عاتقه وهو يقول :

لابد للنفس ان كانت مصرفة من أن تنقل من حال إلى حال

ومن أولى - رعاك الله - بأن يصرّف نفسه من حال إلى حال ، ومن أحق بالاسترواح والانشراح من ذلك العالم أو الأديب الذى يصهر ذهنه فى خدمة الانسانية ، كالذبالة تضىء للناس وهي تحترق ؟ وهل هو يفعل فى ذلك إلا ما تقضى به إنسانيته ، وتدفعه إليه طبيعته ؟ فاذا طاب لنا أن نقف بهذا وأمثاله موقف التزمت والوقار فى كل فترة من فتراتهم ، فنحن فى الواقع نجردهم من نصف إنسانيتهم ونعطل فيهم قوة خلقها الله لهم مباءة للرفاهية والراحة ، بل نحن نبقى لهم حياة هى الكرب الآخذ بالخناق ، والجحيم الذى لا يطاق . وإنى لأعجب لبعض الناس أن تطرق إلى عقولهم تلك العقيدة الغريبة وهى أن حياة الأبرار فى الجنة ، أرفع وأشرف من أن يدخلها الضحك ، ويكون فيها التنادر . ولقد رأيت كثيرا من هؤلاء يهيئون نفوسهم فى هذه الحياة الدنيا لاستقبال تلك العيشة العابسة التى يزعمونها فى دار النعيم ، فهم يطردون من صدورهم كل ميل إلى السرور والانشراح ، ويكشحون عن صحائف وجوههم كل لمحة من سنا البشر والطلاقة . وكثيرا ما أصادف فى غدواتى أحد هؤلاء العابسين فينظر إلى كمن عرفنى نظرة موحشة شزرة ، كأنما هو قاض سماوى قد هبط إلى هذا العالم ليحكم بأقصى العقوبة على كل من يعرف ، ومثل هذا الرجل يقطع ولا شك ذنَب هرّته اذا هو صادفها تعبث به ، فبالله سله من علّم الهرة أن تعبث بذنبها ؟ ! . »[1]

هذا وللجاحظ فى هذا المعنى كلام حسن هو من أقوم ما قيل فى بابه ، وأدق ما أتى فى معناه ، وإنما ساق الرجل الحديث فى ذلك وهو ينضح عن نفسه ، ويدحض شبهة كالتى نعالجها ، إذ

(١) من تقريظ التوحيدى للجاحظ .

(١) هذه البذة من كتاب « حديث المائدة » للكاتب الأمريكى هولمز وقد اعتمدنا على ترجمة الأستاذ السباعى

خاف ـ وهو العالم الأديب ـ أن يتهم بالنزق والسفه من أجل مايستروح به من المزح والفكاهة ، وبسوقه من الطرف والتنادر . والظاهر أن مسألة الجد والمزاح كانت من المسائل التى شغلت الأذهان فى عصر الجاحظ ، فكثر حولها القول ، وطال فيها الخلف والتضارب ، وما كان ذلك إلا نتيجة لازمة لتلك الحياة الفكرية التى كان عليها القوم ، وهى حياة مضطربة لم تأخذ وضعها من الاستقرار بعد ، ولم تكن قد خلصت من شوائب الأخذ والرد ، فهناك علماء الفقه والسنة ما زالوا يتلمسون نصوص الشريعة يطبقونها على ما أمامهم من مظاهر وظواهر ، وتبيان ما هو حلال منها وما هو حرام ، وإلى جانب هؤلاء جماعة يتولون الوعظ بأحوال السابقين ، والزجر بالقصص والآثار ، وإن فيهم من لا يتورع عن التزيد والافتراء ، والحشو والكذب ، لتأييد أمر له فيه غرض ومأرب . وثمّت عناصر فارسية من الشعراء والأدباء لا يتحرجون من اقتحام الدين والخروج على الأوضاع ، فكل همهم اشباع الجسد ، وامتاع القلب ، وفيهم من يذهب فى التظرف مذاهب ، فكان من الطبيعى أن تقوم مسألة « المزاح » عند كل فريق من هؤلاء باعتبار ، وأن يجرى فيها القول على خلاف ، إذ لكل هوىً ومنزع ، وقد عرض الجاحظ أقوالهم أجمل عرض فقال : « وقد ذهب الناس فى المزاح إلى معان متضادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان » وبعد أن أتى الجاحظ على جمل هذه الأقاويل أخذ فى إعلان رأيه فقال : « ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح فى الجملة ، كالجد فى الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح ، وقد يكون الكلام فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسجيح والتسهيل ، وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً حيراً لهم ، والباطل محضا أردَّ عليهم ، ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل ، فأن ذممنا المزاح ففيه لعمرى مايذم ، وإن حمدناه ففيه مايحمد ، وفصل مابينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينفى حتى يصير كالغدر فلا ، لأن المزاح مما يكون مرة قبيحا ومرة حسنا ، ولا يكون الظلم الا قبيحا ، وبعد : فمن حرّم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرع من فروع الطلاقة ، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة [1] . . .

ولا شك أن الجاحظ فى رأيه هذا قد وقف موقف العدل والانصاف ، وقال قولا هو غاية القصد . ولقد أحسن الرجل كثيراً إذ راعى « المقام » فى حكومته بين الجد والمزاح ، فقال بأن « لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل » نقول : بل وكذلك كل شأن من شؤون هذه الحياة ، وما أحسب أحداً فى الناس يجهل أن وضع الندى فى موضع السيف مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى ؛ ولكن قل فى الناس من يتعرف الوضع المناسب ، ويتبين المقام المشاكل ، وما ذلك فى الواقع الامسبار الذكاء ، ومحك البراعة ، وهل التنادر يقوم الا على قوة المفارقات ، والتمييز بين المناسبات ؟ وهل الرجل الذى يلقى بالنادرة فى موقف العظة والاعتبار ، أو يخلق الضحكة ينطلق بها فوه بين مظاهر الأسى والحزن ، ألا نزق طائش ، بل قل سفيه لا يحس بالواجب ، ولا يقدر العواقب ، وسرعان ما ترمقه العيون بالنظر الشزر ، ويقعد فى الجالسين مقعد الثقيل المملول ، وربما كانت نادرته حلوة رائعة ، وضحكته رقيقة حسنة ، ولكنه ألقى بها فى المقام الكز ، واختار لها الموقف الخشن ! !

ولا عاب فى المزح عند الجاحظ إلا أن الخطأ اليه أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، ومن ثم فهو يرى أن من الصون للأديب أو العالم أن يكون فيه على قصد ، وأن يعالجه على قدر ، هو قدر الاسترواح والانشراح . ولقد أوضح هذه الناحية اذ يقول : « والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان ، وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرق له مطرق ، لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم فى نفسه ، لأنه أصل بنائه على الخطأ ،

(١) رسالة التربيع والتدوير ص ١١٤ من رسائل الجاحظ .

ولا يخالطه من الأخلاق الا ما سخف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شيء ولا أطول له صحبة . . . من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء [٢] . . . »

وهذا كلام يتفق فيه الجاحظ هو وصاحب حديث المائدة ، إذ يقول فى كلام له عن الجد والمزاح « أنا لا أمقت منكم مثلكم إلى الضحك ، ولا أضن عليكم بالكلمة تضحككم متى قدرنى الله على ذلك ، فأما أن تطلبوا إلىّ ألا أقول إلا ما يضحك ، وإلى أنفسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك ، فذاك مخالف لسنة الطبيعة ، وجدير بمن هذا شأنه أن ينقلب قرداً لتوّه وساعته . . . ولذا كان من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل فى باب المضحك ، فانه يعوّد الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك وألا يعرفوه إلا مزاحاً ، فهم يضحكون معه ما دام يضحكهم ، فاذا أراد أن يجد وشرع ينطق بالعلم والحكمة ضحكوا منه وهزئوا به » . ثم ينظر صاحب حديث المائدة إلى الموضوع من ناحية لم يتمعنها الجاحظ فيقول : « على أن هناك سبباً أغمض من ذلك ، ألا تشعر أنك ترى نفسك فوق كل إنسان يتصدى لأضحاكك ، سواء بحركات جسده أو بحركات قلبه ؟ بل ألا تشعر بأنك تفيض عليه من برك وإحسانك إذ تمن عليه بتقبلك منه الوثبات الحقيقية أو الشعرية ! ! فاذا لزم أدبه ، ووقف عند حده بخيراً يفعل ، وإذا حاول أن يعلو إلى مقامك الرفيع ، فأخذ يدلى اليك من منبر عظته نوابغ الحكم ، فبئس ما صنع ، وساء ما أتى ، وهيهات أن يقوم عندك مقام الواعظ ، أو يفوز منك بنظرة الإجلال التى هو جدير بها لعلمه وأدبه ! [١] » .

وما كان الجاحظ من الدعابة والمزح ، إلا فى ذلك المقام الكريم الذى اتفق عليه هو وصاحب حديث المائدة ، فتجده يستروح بالنادرة ، ويتفكه بالدعابة ، ولا يضن على السامر بالكلمة تصفق لها القلوب ، وترتاح لها النفوس . وإنه فى ابحاثه وكتاباته ليبتدع النكتة ابتداعاً ، ويحتفل بالنادرة يسوقها إلى القارىء ، ولكن كل هذا فى المقام المناسب ، وعلى القدر اللازم ، فما تعدى طوره ، ولا خرج عن قدره ، ولا استذل كرامته بالتزيد والأمعان فى المجانة . وإذا كان ابن قتيبة قد عاب الجاحظ بالعبث والضحك ، فما ابن قتيبة إلا مسرف فى هذا الاتهام ، وإنه ليطعن الجاحظ فى غير مطعن ، بل إنه يريد أن ينكر على الرجل طبيعته البشرية ، وكأنه كان يحمل له ضغناً ، ولماذا ينكر ابن قتيبة على الجاحظ ما استباحه هو لنفسه فى عيون الأخبار من سرد المضاحيك والمعائب ، حتى ليقول فى مقدمة ذلك الكتاب بلهجة صريحة : « وسينتهى كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به ، واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك ، فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه ، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك ، فهيأ على ظاهر محبتك ! ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك ... » ، وأحب أن يتأمل القارىء قوله — شطر بهائه وشطر مائه — فياليت شعرى إذا كان توقى المزاح والفكاهة سيذهب بالبهاء والماء ، فماذا يبقى بعد ! ؟ ؟

« للكلام صلة »

محمد فهمى عبد اللطيف

(٢) الترجيع والتدوير للجاحظ .

(١) حديث المائدة نهب الباحى فى البيان .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

احيـــاء النحو

للأستاذ ابراهيم مصطفى

الاستاذ بالجامعة المصرية

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع هذا الكتاب القيم وهو بحث فى النحو على نمط جديد ويفتح فيه أبواب البحث ويقترح ضروبا من الاصلاح .

وثمنه ١٥ قرشا عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بدارها رقم ٩ شارع الكرداسى بعابدين ومن المكاتب الشهيرة ؟